كلمة على الهامش

للأستاذ على الطنطاوى

أنا لا أحب أن أنزل إلى ميدان المناظرة بين الأستاذين الفحلين شاكر والمربان ، والأستاذ قطب ؛ لأنه لا يقوم لأحدهما بَلْه أن يعينهما عليه معين ، على أن الحق لعمرى بينهما . ومع الحق بيان يجلو الحق ، ولغة نغمة كأن فيها روحاً من روح الرافعى رحمه الله ، ولهذا البيان قراء يبلغون مائة الألف انعقدت قلوبهم على محبة الرافعي وإجلاله ، وآمن منهم من آمن بأن الرافعى رجل لم يكتب بالعربية من هو أبلغ منه بلاغة ... فما حاجة ضعيف مثلى أن ينزل إلى الميدان ؟

وفيم الخلاف ؟ فى (انسانية) الرافعى ! ...

الأستاذ قطب يشك فى (انسانية) الرافعى ... أى أنه يشك فى انه انسان ، فماذا يكون إذن ؟

ثم ماذا ؟ ثم انه (على رأى سيد قطب) تنقصه العقيدة ! والعقيدة مشتقة من العقد ، قال فى اللسان : عقد قلبه على الشيء لزمه ... واعتقد كذا بقلبه أى رآه ، فلابد إذن لتمام كلمة الأستاذ قطب من أن يبين الشيء الذى ينقص الرافعى رضى الله عنه اعتقاده ، وإلا فكلامه لا معنى له فى العربية .. فهل ينقص الرافعى العقيدة في الدين ، أو فى الوطنية ، أو ينقصه اعتقاد مذهبه فى الأدب . أو ماذا ؟

أو هى الفاظ تساق ولا يدرى لساقها غاية إلا التهويل بها على القراء ؟

هذه مسألة لا يصح أن يكون عليها خلاف ، أو تدور عليها رحى مناظرة ...

أما جوهر الخلاف بين أدب الرافعى وشعر العقاد ، فهو الخلاف بين الأسلوب الذى يعتمد على البيان والصحة والصناعة والجمال ، وبين الأسلوب الذي يستند إلى المعنى المبتكر ، والصور الجديدة ، لم يظهرها لفظ قوى ، ولا أداء مستقيم . فالعقاد فى شعره مبتكر مجدد ، ولكنى أشبّه ألفاظه وهى تحمل معانيه ، بصبيان ضعاف مهازيل ، يحملون الصخور العظيمة فتسحقهم ويموتون تحت أثقالها ... كما أني أجد من الأساليب ما أشبه ألفاظه ومعانيه بعمالقة ضخام ، ولكنهم يحملون حفنة من الحصى

فالخلاف إذن على اللفظ والمعنى ، هذه المشكلة التى تكلم فيها الجاحظ ، ولم ينته القول فيها بعد . على ان فى إطلاق اللفظ والمعنى تجوزاً ، لأنه يستحيل أن يكون فى الوجود لفظ بلا معنى ، من يذكر كلمة السماء ولا يتصور هذه القبة الزرقاء ، أو يسمع اسم الكتاب ولا يذكر هذه الصحائف المجموعة ؟ كما يستحيل أن يكون معنى بلا لفظ ، لأن هذا المعنى يبقى خاطراً هاجساً فى نفس صاحبه لم يدخل نطاق الأدب . ولكن الكلام فى قطعتين أدبيتين ، إحداهما تزدان بالتعبير الجميل ، والأسلوب البارع ولكنها تصف شيئاً تافهاً ، أو تدور على معنى سخيف ، والثانية يتصور صاحبها ناحية من نواحى النفس البشرية ، أو ظاهرة من ظواهر الكون ، فتجيد التصور ولكنه يعجز عن التصوير ، فأى هاتين أسمى مقاماً وأدنى إلي الأدب الخالص ؟ هذه هى المسألة !

أما المتقدمون من نقدة الأدب العربى فأكثرهم على أن المعانى على قوارع الطرق ، وإنما يتفاضل الناس بالألفاظ . وليس معنى هذا احتقار المعني وتهوين شأنه ، فإن للمعنى المقام الأول عند نقادنا . ونستطيع أن نقرأ الفصل القيم الذى عقده الامام الجرجانى فى الدلائل ، ولكن معناه أن الشعور بالجمال عام ، ولكن الناس يتفاضلون بالتعبير عنه ؛ إذا نظر جماعة من الناس إلى مغرب الشمس فى البحر ، أو بزوغ البدر من وراء الجبل ، أدركوا جميعاً جمال ما يرون (وإن كان كل يدرك على نسبة استعداده وهوى نفسه) ، وإن وقف جماعة فى موقف الوداع أحسوا جميعاً بالألم يعصر نفوسهم ، ولكن هذا الادراك وهذا الاحساس لا يسميان أدباً ، وإنما الأدب هو الصيغة اللفظية التى يعبر بها عن هذا الاحساس ؛ وعلى مقدار التوفيق فى هذه الصياغة تكون قيمة القطعة الأدبية

هذا هو الحق ، ولكن هذه الفئة من المجددين ، أرادت حين عجزت عن الأداء المستقيم والصياغة البارعة والديباجة الصافية أن تقلل من قيمتها وتحقرها ، وتسمى كل أديب يعرف للغته حقها وكل أديب آتاه الله ملكة قوية ، تسميه سطحياً فارغاً . ولقد

بلغ من فساد أذواق بعض هؤلاء المجددين أن قرأت مرة لواحد منهم فصلاً يقدم به لكتاب ، فوقع له فيه مجاز حلو أحسست لما قرأته بمثل ما أحس به حين تطلع على من الطريق فتاة جميلة ، وعجبت له من أين جاء به ، ولكن عجبي قد بطل حين رأيته يعتذر منه ، ويريد أن يواريه كما يوارى المرء سوأته ، لأنه — زعم — يكون (سلواناً) إذا جاء بمجاز حلو ، فليتصور القارئ أى شيء يكون الأدب إذا اطرّح المجاز واقتصر على الحقيقة ؟

هذا سر الخلاف فى رأيي . والرافعيُ رضى الله عنه ، بلغ فى هذه الصناعة ، وفى توليد المعانى ، وفى نخل الألفاظ وتصفية الديباجة ما لم يبلغه كاتب عربى ، فلا عجب إذا أبغضه خصوم البيان العربى

* * *

والعجب من الأستاذ سيد قطب ! يأبى أن يناقش الأستاذ العريان لأنه لم يأت على أغراضه بدليل ... ثم ينقد أبياتاً للرافعى يقطر ماء السلاسة من أعطافها ، وتنطق كل كلمة فيها بألم صاحبها فى حبه ، وعذابه فى غرامه ، حين سمع أن للحب ليناً ووصالاً ، ولكنه لم ير إلا قساوته وجفاءه ، فهو يسأل المحبين كيف يكون هذا اللين ، وينظر حوله فإذا قد (قضى كل ذى دين فوفى غريمه) فيأسى ويألم لنفسه أن بقيت ديونه وحدها لم توف . ثم يمد يده ينظر هل من مسعد أو من معين ، ولكنه لا يريد مساعدة ولا عوناً ، هو هانئٌ بالحب لأن الحب أهناه حزينه ، قال :

من للمحب ؟ ومن يعنيه ؟ والحب أهناه حزينه
أنا ما عرفت سوى قسا وته فقولوا كيف لينه
ان يقض دين ذوى الهوى فأنا الذى بقيت ديونه

فلا يجد نقداً لهذه الأبيات الثلاثة (وثالثها مأخوذ من بيت كثير المشهور ، لم يتنبه لذلك سيد قطب) إلا أنها تقليد لشعراء الدول المتتابعة والمماليك فى مصر ...

هذا هو النقد الفنى عند الأستاذ سيد قطب !

* * *

ويقول الرافعي رضى الله عنه :

قلبي هو الذهب الكريم فلا يفارقه رنينه
قلبي هو الألماس يعـ رف من أشعته ثمينه

فلا يفهم سيد قطب من هذا التشبيه البليغ إلا (أنه يذكر قلبه فى سوق الجوهرات من الذهب والألماس معتقداً أن تلك المعادن أغلى من القلوب لأنها تقوّم بالمال الكثير فى السوق)— مع أن الأستاذ قطب يدعى فى رأس مقاله بأنه أفهم لأدب الرافعى من الأستاذ العريان، فهو إذن يتعمد أن يتظاهر بأنه لم يفهم هذين البيتين لغرض فى نفسه ... ولا حيلة لنا معه فى ذلك !

والأنكى من ذلك كله ... أن ينقض هذا البيت الذى يعدل والله قصيدة ، بل ديواناً من دواوين الغزل :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

إن انتقاد هذا البيت وتشبيهه وما بعده بالخطب المنبرية الجافة تحقير للحب ، وتنزيل له إلى حيث يخالف الدين والأخلاق حتما ، ودعوى ضمنية بأن الحب لا يستطيع أن يحتفظ بخلق ولا دين !

* * *

على أن الرافعي رحمه الله عيوباً ومزايا . وليس إلا الله خالياً من العيوب ، والرافعي ملْك للنقد ، ولكن للنقد شرائط ... أولها أن يلقى الناقد عنه هواه ، ويطرّح بغضاءه . فان البغضاء تدفع إلى الظلم ، والهوي يعمى ويصمّ !

دمشق — على الطنطاوى

سندباد عصرى
فى سفينة مصرية
رددت أخبارها صحف العالمين
الإنسانية فى شتى مظاهرها تطالعك من صفحات
سندباد عصرى
بقلم
حسين فوزى
١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً